المكى والمدنى من القرآن وأهدافهما

د. عبد البديع أبو هاشم محمد

الأستاذ المساعد بقسم التفسير – كلية أصول الدين

جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمد الله الذى يمن علينا بمزيد النعم، وعظيم الكرم، وإن أجل ما يجود الله به على العبد أن يوفقه إلى العلم، وإن أجمل ما يتعلمه طالب العلم، وينشغل به العالم.. علم علوم القرآن .. ولا سيما معرفة مكيه ومدنيه.

فبهذا يعرف مكان وزمان وملابسات نزول آيات القرآن الكريم ، وبذلك يعرف تدرج القرآن فى تشريع الأحكام، وغير ذلك من فوائد كثيرة جليلة.

وهذه ورقات فى عرض المكى والمدنى من القرآن الكريم دراسة أصولية.. أرجو فيها الوفاء بتأصيل هذه المسألة من مسائل علوم القرآن، كما أرجو لها أن تحظى بإجازة أساتذتى وشيوخى العلماء... جزاهم الله عنا خيرا.. وأن ينفع الله بها طلاب العلم النجباء.

وأسأل ربنا أن يتقبل أعمالنا حجة لنا لا علينا.. عالما ومتعلما

إن ربنا قريب يجيب الدعاء

وكتبه
عبد البديع أبو هاشم محمد
الأستاذ المساعد
بقسم التفسير.. بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر بالقاهرة

المكى والمدنى

تولى الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها وإنما هى- فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية- دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب، فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطا يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرج فى الأحكام والتكاليف.

ومما روى فى ذلك: ما قاله ابن مسعود- رضى الله عنه: "والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه"[١].

وفى صحيفة على بن أبى طلحة- رحمه الله- عن ابن عباس- رضى الله عنه- فى تفسير قوله تعالى: (يؤتى الحكمة من يشاء.. الآية) قال: "يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه. ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله"[٢].

---

١) صحيح البخارى ك/ فضائل القرآن ب/ القراء من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ قريب من هذا وكذا رواه مسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه- رضى الله عنهما.

٢) صحيفة على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى التفسير ص١١٩ مسألة رقم ١٣٥ تحقيق/ راشد عبد المنعم الرحال ط أولى مكتبة السنة ١٤١١هـ

ويروى الإمام أبو نعيم عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه- قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا سؤولا"[١].

وجاء من بعد الصحابة- رضى الله عنهم- التابعون وتابعوهم- رحمهم الله تعالى- وبذلوا الجهود العظيمة فى خدمة كتاب الله، بما يزيد القرآن الجليل جمالا وجلالا، ويملؤ النفوس تعلقا به ورضاءا، حتى آتت جهودهم ثمارها فتحددت أمكنة وأزمنة نزول الآيات والسور القرآنية، وعرف ما نزل من القرآن فى مكة أو المدينة، أو فى ضواحيها، قبل الهجرة إلى المدينة أو بعدها، فى الحضر أو السفر، فى الليل أو النهار، وما أشبه هذا أو ذاك، وما نزل فى مكة أو حولها ونقل إلى المدينة، أو نزل فى المدينة أو حولها ونقل إلى مكة.. إلى غير ذلك من أنواع قررها أهل هذا الفن وحرروها.

وفى الحلية أيضا- إن الإمام الشافعى- رحمه الله- اتهم بأنه رئيس حزب العلويين باليمن، وسيق بسبب هذا التهمة إلى الرشيد مكبلا بالحديد فى بغداد، فسأله الرشيد حين لمح علمه وفضله، وقال: كيف علمت بكتاب الله عز وجل فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به.

فقال الشافعى: عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتبا كثيرة.

قال الرشيد: قد أحسنت، ولكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الشافعى: إن علوم القرآن كثيرة: فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه؟ أو عن تقديمه وتأخيره؟ أو عن ناسخه ومنسوخه؟ أو عن.. ؟ أو عن...؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ومسائله، ويجيب على كل بما أدهش الرشيد والحاضرين.أ.هـ[٢]

---

١) الإمام / أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ت/ ٤٣٠هـ حلية الأولياء ج١ ص٦٧.

٢) حلية الأولياء ٨٧/٩ ط٦ دار الريان ١٤-٧هـ ١٩٨٧م وذكره الزرقانى فى مناهل العرفان ٣٣١

فضل معرفة المكى والمدنى من القرآن:

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتابه "التنبيه على فضل علوم القرآن": من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، وما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى المكى، وما نزل بالجحفة، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المكيات فى السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا وما نزل مفسرا، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى"[١].

مطالب هذا البحث:

عنوان المكى والمدنى يحتمل أن يكون المطلوب تحته هو جمع الآيات والسور المكية والمدنية، كل صنف على حدة وتناولها بالتفسير والبيان، ويحتمل كذلك أن يطلب تحته الدراسة التاصيلية التى يعرف بها ويتميز المكى والمدنى من آيات القرآن الكريم وسوره.

ولكن المطلب الذى يتجه إليه القصد هنا فى هذه الدراسة إنما هو الاحتمال الثانى دون الأول، الذى هو أدخل فى خصوص التفسير من دخوله فى عموم علوم القرآن، وهو ما يحتاج إلى جهد كبير لا يتسع إليه هذا المقام.

وفى ذلك يقول الشيخ الزرقانى- رحمه الله-: "ليس من غرضنا فى هذا المبحث. أن نستقصى بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره، وأن نحقق ما كان منها مكيا وما كان مدنيا، فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تفرد بالتأليف وقد أفردها فعلا بالتأليف جماعة، منهم مكى والعز الدرينى.

---

١) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج١، ص٢٥ ط أولى ١٤٠٧هـ.. ١٩٨٧م دار ابن كثير بيروت

ولكن حسبنا هنا أن نتكلم عن الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى، وعلى فضل العلم بالمكى والمدنى، وعلى الطريق الموصلة إليه، وعلى الضوابط التى يعرف بها، وعلى السور المكية والمدنية. والمختلف فيها، وعلى أنواع السور المكية والمدنية، وعلى أوضاع تتعلق بالمكى والمدنى، وعلى فروق أخرى بين المكى والمدنى صيغت من بعدها عن مطاعن فى القرآن، وعلى دفع تلك المطاعن ونقضها"[١].

ضابط كل من المكى والمدنى:

كان للعلماء فى تحديد الضابط اللفظى الذى يميز كلا من المكى والمدنى ثلاثة مذاهب، ثم رجحوا بعضها على بعض فكان الأمر كما يلى.

<u>المذهب الأول</u>: هو اعتبار المكان، حيث إنه هو الاعتبار المتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة : مكى ، أو مدنى ، وعلى هذا يكون المكى: هو ما نزل فى مكة أو فيما جاورها من ضواحيها، ولو بعد الهجرة.

والمدنى: هو ما نزل فى المدينة أو فيما جاورها من ضواحيها. وهذا المذهب لم يلق القبول عند أهل التحقيق من العلماء على الرغم من شهرته- كما ذكر الشيخ الزرقانى- رحمه الله.

"إنه غير ضابط ولا حاصر، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه- فى سورة التوبة (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك)[٢]. فإنها نزلت بتبوك، وقوله سبحانه فى سورة الزخرف. (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا)[٣]. فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

---

١) الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى.. مناهل العرفان فى علوم القرآن (١٩٢/١) ط الحلبى.

٢) التوبة: ٤٢

٣) الزخرف: ٤٥

ولا ريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما ذكر من الأقسام، وذلك عيب يخل بالمقصود الأول من التقسيم والحصر[١].

وذكر صاحب الإتقان عن الطبرانى فى معجمه الكبير من طريق الوليد بن مسلم[٢]. عن عفير بن معدان، عن ابن عامر، عن أبى أمامة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة مكة، والمدينة، والشام" قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وقال عماد الدين ابن كثير: بل تفسيره بتبوك أحسن.

قال السيوطى: ويدخل فى مكة ضواحيها، كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية، وفى المدينة ضواحيها، كالمنزل ببدر وأحد وسلع أهـ[٣].

المذهب الثانى:

كان إلى اعتبار نوع المخاطب بالقرآن فقال أصحاب هذا الرأى: المكى هو ما كان خطابا لأهل مكة. والمدنى هو ما كان خطابا لأهل المدينة.

وألحق بعض العلماء بذلك قول من قال: إن ما صدر بلفظ (يا أيها الناس..) هو مكى، وما صدر فيه بلفظ (يا أيها الذين آمنوا..) فهو مدنى.

وعللوا لذلك بقولهم: لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة فخوطبوا بيا أيها الناس، وإن كان غيرهم داخلا فيهم، ولأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة فخوطبوا بيا أيها الذين آمنوا، وإن كان غيرهم داخلا فيهم أيضا كما ألحق بعضهم صيغة (يا بنى آدم) بصيغة يا أيها الناس، وأخرج أبو عبيد فى فضائل القرآن عن ميمون بن مهران قال "ما كان فى القرآن يا أيها الناس، أو (يا بنى آدم) فإنه مكى، وما كان يا أيها الذين آمنوا فإنه مدنى".

---

١) مناهل العرفان للزرقانى (١٩٣/١)

٢) الوليد بن مسلم: مدلس، ففى روايته بالعنعنة توقف وانظر تقريب التهذيب ص٥٨٣ رقم ٧٤٥٦ نسخة عوامة

٣) الإتقان للسيوطى (٢١/١) وسلع: جبل فى المدينة.

وقال السيوطى: وحمل على هذا قول ابن مسعود، وأخرجه البخارى: "والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت"[١]، وهذا الحمل غير وجيه فيما يبدو لى، لأن الآيات والسور لم تنزل كلها فى أعيان الأشخاص، وما نزل فى عين شخص فليس كله خطابا، والله أعلم.

وعليه فإن هذا التقسيم هو الآخر لم يحظ بالقبول، ولم يسلم من الاستدراك عليه من جتهين الأولى: أنه كسابقه غير ضابط ولا حاصر، حيث إن من القرآن ما نزل غير مخاطب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، كما فى قول الله تبارك وتعالى: (يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن.. الآية)[٢]. ومثل ذلك الآيات الكثيرة التى لم تصدر أصلا بأى نداء، أو بعبارة أخرى: الآيات التى لا تحتمل الخطاب لفظا ولا معنى، مثل قوله: (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها... وما يضل به إلا الفاسقين)[٣].

وقال د/ فهد الرومى: ضعف هذا القول ابن الحصار فقال "اتفق الناس على أن (النساء) مدنية؛ وأولها (يا أيها الناس) وعلى أن (الحج) مكية؛ وفيها (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا..)[٤]، وقال غيره هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية، وفيها (يا أيها الناس اعبدوا ربكم..)[٥]، (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا..)[٦].

---

١) صحيح البخارى ك/ فضائل القرآن ب/ القراء من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ قريب من هذا وكذا رواه مسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه- رضى الله عنهما.

٢) الأحزاب: ٢٨

٣) البقرة ٢٦

٤) الحج

٥) البقرة: ٢١

٦) البقرة ١٦٨.

وبهذا يظهر ضعف هذا المذهب، وعدم صحة الاعتماد عليه فى تحديد المكى والمدنى، وعلى أنقاض هذا الرأى وذاك يقوم بنيان المذهب الصحيح وهاك هو.

المذهب الثالث:

وهو اعتبار الزمان الذى تنزلت فى خلاله آيات القرآن وسوره، وعلى أساسه فإن الضابط الذى يحدد المكى والمدنى هو أن المكى: ما نزل من القرآن قبل الهجرة النبوية إلى المدينة.

والمدنى: ما نزل من القرآن بعد هذه الهجرة.

نقل السيوطى عن عثمان بن سعد الرازى أنه خرج بسنده إلى يحيى ابن سلام قال: "ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فهو من المكى، وما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدنى" قال السيوطى: وهذا أثر لطيف، يؤخذ منه: أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحا[١].

وهكذا فقد راعى أصحاب هذا المذهب عنصر الزمان، واعتبروا الهجرة المباركة هى الفاصل بين هذين النوعين: المكى والمدنى، وترجح هذا المذهب عند العلماء بما أنه جامع مانع، حاصر لكل الآيات القرآنية، فإنك لا تجد آية من القرآن إلا وهى نازلة إما قبل الهجرة وإما بعدها..، وبناء عليه فقد اعتبر العلماء بعض الآيات القرآنية مدنية وإن كانت نازلة فى مكة أو جوارها، مثل قول الله تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها..)[٢]. فإنها مدنية بهذا الاعتبار وإن كانت نازلة فى جوف مكة عند الكعبة، غير أن ذلك بعد الهجرة يوم فتح مكة فى العام الثامن من الهجرة، وكذلك قول الله سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)[٣].

---

[١]) الإتقان) (٢٦/١) دار ابن كثير

[٢]) النساء: ٥٨.

[٣]) المائدة: ٣.

نزلت بعرفة، يوم حجة الوداع فى العام العاشر من الهجرة، وأرض عرفة أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، ومع ذلك فهذه الآية مدنية حسب زمان نزولها، ومن أمثال ذلك أيضا: صدر سورة الأنفال، حيث نزلت ببدر، وكذلك كل ما نزل بأسفاره صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا كله يتقرر أن المذهب عند أهل العلم فى تقسيم القرآن إلى مكى ومدنى هو النظر إلى زمان نزول الآية، فيعرف المكى بأنه هو ما نزل قبل الهجرة. والمدنى بأنه ما نزل بعد الهجرة وإن نزل فى مكة أو ما ألحق بها.

فائدة :

إن كانت هناك آيات مدنية نزلت فى مكة- كما سبق ذكره- فاعلم أنه لا توجد آية تعتبر مكية وهى نازلة فى المدينة، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخرج من مكة قبل الهجرة، حيث لا جهاد يخرج له، ولم يسافر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أو غيرها، حتى هاجر فكان السفر والخروج للجهاد والعمرة والحج وغير ذلك.

فوائد معرفة المكى والمدنى:

بعدما عرفت الضابط المميز لكل من الكى والمدنى، يحسن أن نقدم بين يديك أيها الطالب للعلم بعضا من فائدة معرفة هذه المسألة الجليلة من مسائل علوم القرآن، لعله يبعث النشاط فى نفسك لمعرفة تفصيل المسألة وبسط أطرافها، ويدع عنك السآمة والملالة من طلب العلم فالأمر يحتاج إلى صبر، ومن يتصبر يصبره الله صبرنا الله وإياك.

وهاك ما تيسر من الفوائد التى تقررت لدى أهل هذا الفن:

١- **الاستعانة بهذه المعرفة على الفهم الصحيح للقرآن الكريم، فقد ثبت من واقع التفسير لآيات القرآن مدى حاجة المفسر إلى معرفة مكان نزول الآية والسور وما فيه من ملابسات أحاطت بالنجم القرآنى النازل، ومدى تأثر المعنى التفسيرى بتلك الملابسات. وعلى سبيل المثال: قد يبدو لدارس القرآن الكريم أو قارئه أن ثمة تعارضا مثلا بين الآيات الآمرة بالصبر على أذى المشركين، والإعراض عنهم، وبين الآيات الآمرة بجهادهم وقتلهم، وقد. لا يزول هذا الإشكال لديه إلا إذا علم أن كل نوع من الآيات إنما يصور طبيعة**

مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية، ويعرف ذلك بتحديد المكى من المدنى.

٢- قد يتوقف القائل بالنسخ بين آيتين فى تحديد الناسخ من المنسوخ منهما، فلو عرف مكية إحداهما ومدنية الأخرى لأمكنه معرفة أن الناسخ هو المدنى لتأخره، وأن المنسوخ هو المكى لتقدمه.

٣- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه فى التكليف، وهذا التدريج ذاته معجزة تؤكد ربانية القرآن، إذ إن البشر والخلق أجمعين عاجزون عن مراعاة كل الأحوال لكل الخلق فى كل الظروف الزمانية والمكانية، على ما هو ظاهر فى التشريع القرآنى.

٤- الاستفادة من معرفة المكى والمدنى والأسلوب فى كل منهما.

فى مجال الدعوة إلى الله بتلوين الأسلوب الدعوى بين الشدة واللين، والإجمال والتفصيل، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والإيجاز مع أهل البلاغة والإطناب مع أهل الجدل، وحسن عرض القصة وضرب الأمثال،.. إلى غير ذلك.

٥- استنباط وقائع السيرة النبوية ودروسها من خلال الآيات القرآنية وتاريخ نزولها قبل الهجرة وبعدها، والاستفادة من ذلك أيضا فى مجال الدعوة والتربية[١]

---

[١] ومن العلماء من قام بهذا الجهد المبارك مثل د/ عبد الصبور مرزوق فى كتابه (السيرة النبوية فى القرآن الكريم) د. محمد على الهاشمى. فى كتابه (شخصية الرسول ودعوته فى القرآن الكريم) أ/ حسن ضياء الدين عنتر. فى كتابه (نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ، أ/ حسن الملطاوى فى كتابه (رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم) وغيرهم. قاله د/ فهد الرومى فى كتابه دراسات فى علوم القرآن الكريم.

٦- الاطلاع على الجهود العظيمة التى بذلها علماء الإسلام فى دراسة القرآن وبيان هداياته وإعجازه، ولعل هذا يكون حافظا يشحذ همم المسلمين فى كل عصر إلى القيام بدورهم فى خدمة القرآن وتفسيره.

مصدر معرفة العلماء للمكى والمدنى:

أعنى بذلك المصدر الذى يمكن أن نحصل من جهته على العلم بمكية آية أو سورة معينة، أو العلم بمدنيتها ، والذى اعتمد عليه العلماء فى حصر هذين النوعين، وهما مصدران: سماعى، وقياس[١].

الأول: مصدر سماعى.

وهو النقل بالرواية الصحيحة عن الصحابة- رضى الله عنهم- لأنهم عاصروا نزول الوحى وشهدوا منازله، وكذا عن التابعين رحمهم الله- حيث إنهم تلقوا علومهم عن الصحابة، وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه، ولم يرد شئ من ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم لوضوح أمره لدى الصحابة، ولأنه ليس من الضروريات الواجبة، وإن كان مشتملا على فوائد كثيرة.

الثانى: مصدر قياسى.

وهذا قائم على الاجتهاد فى ملاحظة خصائص العهد المكى والعهد المدنى. والبحث عن ذلك - بتدبر وفهم - خلال آيات القرآن، ولا يقوى على ذلك كل واحد من الناس إنما له أهله الذين استقرءوا آيات القرآن وسوره متدبرين حتى عرفوا طابع الآيات والسور المكية والمدنية، واختاروا لذلك ضوابط تميز بها كل نوع من النوعين، وهى كما يلى.

---

[١] ذكره الإمام الزركشى فى برهانه عن الإمام الجعبرى (٢٤٢/١)، ونقله الإمام السيوطى فى الإتقان (٥٣/١)

ضوابط القرآن المكى:

١- النداء ب(يا أيها الناس- أو- يا بنى آدم)

ذكره الزركشى عن الجعبرى عن علقمة بن قيس النخعي الـهمذانى، ت٦٢هـ، تابعى، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "كل سورة فيـها (يـا أيها الناس) فقط، أو (كلا)، أو أولها حروف تهج- سوى الزهراوين والرعـد فى وجه- أو فيها قصة آدم وإبليس- سوى الطولى فهى مكية، وكل سـورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد فـهى مدنية"[١].

وقد نص على هذا القـول جماعـة مـن الأئمـة، منـهم: الإمـام أحمد بـن حنبـل وغـيره، وبـه قـال الكثـير مـن المفسـرين، ونقلـه عن ابن عباس.

وهذا القول إن أخذ على إطلاق ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنيـة، وفيها: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...)[٢] وفيها (يا أيها الناس كلوا ممـا فـى الأرض حلالا طيبا..)[٣] وسور النساء مدنية وفيها: (يا أيـها النـاس اتقـوا ربكم..)[٤] وفيها (إن يشأ يذهبكم أيها الناس)[٥] وسورة الحج مكية فيها: (يـا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا.....)[٦].

---

١) روى بعضه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى فضائل القرآن من طريق الأعمش عن إبراهيم عن علقمة، ورواه الحاكم فى مستدركه، فى آخر كتاب "الهجرة" بالإسناد نفسه مرسلا عن ابن مسعود وكذا البيهقى والبزار، وقال: وهذا يرويه غير قيس عن علقمة مرسلا، ولا نعلم أحدا أسنده إلا قيس. رواه ابن مردويه فى تفسيره فى سورة الحج عن علقمة عن أبيه وذكر فى آخر الكتاب عن عروة بن الزبير نحوه.

٢) البقرة: ٢١

٣) البقرة : ١٨٦

٤) النساء: ١

٥) النساء: ١٣٣

٦) الحج: ٧٧

فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكى: هـذا إنما هو الأكثر وليس بعام، وفى كثير من السور المكيـة (يـا أيـها الذيـن آمنوا...).

وقال القاضى: إن كان الرجـوع فـى هـذا إلـى النقـل فمسـلم، وإن كـان السـبب فيـه حصـول المؤمنيـن بالمدينـة علـى الكـثرة دون مكة فضعيف، إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتـهم واسـمهم وجنسـهم، ويؤمر غير المؤمنين بالعبادة كمـا يؤمـر المؤمنـون بالاسـتمرار عليـها والازدياد منها[١].

والذى أميل إليه فى هذه المسألة: أن الأمر محمـول علـى الغـالب والأكثر كما قال مكى- رحمه الله- وهذا فعلا لا يمنع أن يخاطب المؤمنـون بيا أيها الناس على الأصل، وأن يخاطب غير المؤمنين بـالأمر بتقـوى الله وعبادته.

٢- كل سورة فيها كلمة (كلا)

قال الزرقانى: وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة، فـى خمس عشرة سورة، كلها فى النصف الأخير من القرآن الكريم.

قلت أولها فى سورة مريم فى قول الله تعالى: (كلا سنكتب ما يقـول ونمد له من العذاب مدا)[٢]

وقال الدرينى:

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

ويذكر الإمام السيوطى عن العمانى حكمة ذلك فيقول: وحكمة ذلـك أن نصفه الأخير نزل أكثر بمكة، وأكثرها جبابرة فتكررت فيه علـى وجـه التهديد والعنف لهم، والإنكار عليهم، بخلاف النصف الأول وما نزل منه فـى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم[٣].

---

١) الإتقان (٥٣/١)

٢) مريم: ٧٩.

٣) راجع فى ذلك: البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى ٢٤٠/١ وما بعدها.

أقول: وأضيف أن الكفار فى مكة كانوا متبجحيـــن بـإعلان الكفـر والعناد وهؤلاء يكون الرد عليهم بكلا مناسبا، بينما كان أهل المدينة من أهـل الكتاب والمنافقين مجادلين مراوغين فلا يناسبهم الرد الصريح كمـا تشـتمله كلمة: كلا

٣- كل سورة افتتحها الله ببعض حروف الهجاء، مثل الم، وطه، وغـير ذلك. إلا البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفـى سـورة الرعد خلاف بين العلماء.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم السابقة، سوى سورة البقرة.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة.

٦- كل سورة من المفصل فهى مكية.

لما أخرج الطبرانى عن ابن مسعود- رضى الله عنه- قـال: "نـزل المفصل بمكة فمكثنا حججا نقرؤه، ولا ينزل غيره".

قال الزرقانى: لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدنيـة نـزل بعـد الهجرة اتفاقا كسورة النصر، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة، بـل قيل إنها آخر ما نزل.

فالأولى أن يحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سـور المفصل، لا على جميع سور المفصل.

والمفصل: على وزان معظم: هو السور الأخيرة من القرآن الكريـم فى ترتيب المصحف - مبتدأة من سورة الحجرات- على الأصح- وسـميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور من أجل قصرها. وقيل سميت بذلك لقلـة المنسوخ فيها، نقول هذا قول فصل: لا نسخ فيه ولا نقض.

٧- كل سورة فيها سجدة تلاوة فهى مكية. وهى أربع عشرة سورة: وهى الأعراف والرعـد، والنحـل، والإسـراء، ومريـم، وفـى الحـج سجدتان،والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشـقاق، والعلق، وفى سجدة الرعد، ص، خلاف والحجر فى رأى البعض.

٨- كل سورة افتتحها الله بالقسم فهى مكية. وهى فى القرآن خمس عشرة سورة: الصافـات والذاريـات، والطـور، والنجـم، والمرسـلات والنازعات، والـبروج، والطـارق، والفجـر، والشـمس والليـل، والضحى،والتين، والعاديات، والعصر.

وتدخل فى ذلك سورة يس على مذهب من رأى أن الله أقسم بـ(يـس والقرآن الحكيم).

ضوابط القرآن المدنى:

١- كل سورة فيها (يا أيها الذين آمنوا) هكذا قال العلمـاء. وأرى أن الأدق أن يقال: كل آية بدلا من القول بكل سورة أو أن يحمل الكلام علـى مـا قـال مكى.. رحمه الله: هذا إنما هو الأكثر، وليس بعام، وفى كثـير مـن السـور المكية (يا أيها الذين آمنوا) أهـ ومثلوا لذلك بسورة الحج فهى مكية وفيها (يـا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبـدوا ربكـم وافعلـوا الخـير لعلكـم تفلحون)[١].

ولذلك قال ابن عطيـة وابـن الفـرس وغيرهمـا.. رحمـهم الله: هو فى (يا أيها الذى آمنوا) صحيح، وأما (يا أيها النـاس) فقـد يـأتى فـى المدنى.

٢- كل سورة ذكر الله فيها الإذن بالجهاد أو بيان حكامه.

٣- كل سورة ورد فيها ذكر الحدود والفرائض.

أخرج أبو عمرو الدارمى بإسناده إلى عروة بن الزبير- رضـى الله عنهما- قال: ما كان من حد أو فريضة فإنه أنزل بالمدينة، وما كان من ذكـر الأمم والعذاب فإنه أنزل بمكة"[٢]. وقال محمد بن السائب الكلبى: "كل سـورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهى مدنية"[٣].

٤- كل سورة فيها ذكر للمنافقين.

ذكر السيوطى عن مكى- رحمهما الله- قال: "كل سورة فيـها ذكـر المنافقين فمدنية" وقال السيوطى: وزاد غيره : سوى العنكبوت[٤].

---

[١]) الحج: ٧٧

[٢]) البرهان للزركشى (٢٤١/١) والإتقان (٥٣/١)

[٣]) د/ فهد الرومى دراسات فى علوم القرآن ص ١٤٨.

[٤]) الإتقان (٥٤/١)

قال الزرقانى: والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية، وهى التى ذكر فيها المنافقون[١].

ونص على هذا الإمام أبو جعفر الطبرى- رحمه الله- فى نهاية كلامه على هذه الآيات قال: "وهذه الآيات العشر مدنية إلى هنا، وسائرها مكى"[٢].

مميزات السور المكية:

كان للسور النازلة فى العهد المكى طابع خاص يتناسب مع الظروف الدينية والاجتماعية والأخلاقية فى مكة، حيث نزلت فى قوم وثنيين دينهم الشرك يعبدون الأصنام من دون الله، انتشرت فيهم العادات الباطلة والأخلاق الرزيلة.

ومن البلاغة مراعاة مقتضى الحال، والتناسب بين المقال والمقام، لذا فإن الناظر فى السور المكية يجدها تتميز بأمور منها:

١- تصحيح التصور العقدى والإيمانى عند الناس بإبطال الشرك وألوهية الشركاء، وبتقرير وحدانية الله رب الأرض والسماء، وصياغة براهين ألوهيته من واقع ربوبيته، وبإثبات حقيقة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،وحقيقة يوم القيامة.

٢- تأسيس القواعد والأصول العامة للعبادات، والمعاملات والأخلاق التى سيأتى تفصيل القول فيها فى العهد المدنى بعد ذلك.

كما فرض الله الصلاة فى مكة، وحبب فى الإنفاق فى سبيل الله، وحرم أكل أموال الناس بالباطل.

---

[١]) مناهل العرفان (١٩٨/١)

[٢]) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى (٨٦/٢٠) ط دار الريان للتراث.

٣- عرض القصة لتقديم العبرة.

قال الله تعالى: (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى يبين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)[١].

٤- ضرب الأمثال لتوضيح المقال:

قال الله سبحانه (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[٢].

وقال أيضا: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[٣].

٥- قصر السورة، وحدة الخطاب، وإيجاز العبارة، وفصاحة التعبير، وبلاغة الأداء، بما أعجز أرباب الفصاحة وأساطين البيان من عرب مكة، حتى كادوا يقتلون النبى حسدا على روعة ما نطق به من القرآن. قال الله عز وجل (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون)[٤].

مميزات السور المدنية:

فى العهد المدنى ومنذ الهجرة استقر أمر الإسلام والمسلمين فى المدينة، وتمكن الإسلام من النفوس، وقد تأسست العقيدة الصحيحة فى القلوب، فأصبحت مشرقة بالإيمان، مستعدة لتقبل الأحكام الشرعية بالأوامر، والنواهى، بالحلال والحرام، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام"[٥]. بل كان المؤمنون هم الذين يطلبون الأحكام وإنزالها. كما فى قول الله تعالى: (يسألونك عن

---

[١]) يوسف آخر آية

[٢]) الحشر: ٢١

[٣]) العنكبوت: ٤٣

[٤]) القلم: ٥١

[٥]) صحيح البخارى: ك/ فضائل القرآن ب/ تأليف القرآن.

الخمر والميسر..) (ويسألونك عن المحيض) وقولهم: "يا رسول الله بين لنا فى الخمر بيانا شافيا"[١].

وحين كلم النبى صلى الله عليه وسلم الناس فى فريضة الحج. قام رجل فقال: (أفى كل عام يا رسول الله؟ قالها ثلاثا دون جواب، وفى الرابعة قال النبى صلى الله عليه وسلم "لا" ولو قلت نعم لوجبت".. وهكذا حتى أنزل الله قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها..)[٢].

ومن ثم كانت للسور المدنية طبيعتها الخاصة أيضا ومن ذلك :

١- تفصيل الحلال والحرام فى العبادات والمعاملات والأخلاق .

٢- فرض الفرائض وتحديد الحدود، وتفصيل ذلك.

٣- كان فى المجتمع المدنى احتكاك بين المؤمنين وأهل الكتاب.. الذين لجأوا إلى المدينة وسكنوا أطرافها، فبين القرآن فى العهد المدنى طبيعة اليهود وخبث طويتهم، ونظمت العلاقات بينهم وبين المؤمنين.

٤- لما ظهر بعد الهجرة ذلك الصراع بين قوة الإسلام العظمى، وقوة اليهود المناهضة لهم نشأت بين القومين فرقة المنافقين الذى أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان كذبا وزورا.

ومن ثم نزلت آيات القرآن فى العهد المدنى مسلطة عليهم الأضواء، معلنة عن صفاتهم الخبيثة، وهتك الأستار عن سوء طبعهم، وخبث طويتهم، ومكرهم بالإسلام والمسلمين.. ولم يكن لهذا النفاق وجود فى مكة قبل الهجرة.

---

١) ذكره ابن كثير وعزاه إلى أحمد من طريق أبى اسحاق عن شرحبيل الهمذانى، وقال : وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى من طرق عن إسرائيل عن أبى اسحاق عن أبى ميسرة شرحبيل عن عمر. وليس له عنه سواه، لكن قال أبو زرعة: لم يسمع منه، والله أعلم. وقال على بن المدينى: هذا الإسناد صالح، وصححه الترمذى. انظر تفسير ابن كثير ٢٧٢١ ط الشعب.

٢) المائدة : ١٠١

٥- لما كانت طوائف المجتمع المدنى مسلمين يسمعون ويطيعون، ومنافقين يسمعون ويعصون، ويهود يسمعون ويجادلون، لا جرم نزلت الآيات القرآنية فى ذلك العهد المدنى مفصلة مناقشة مجادلة بالتى هى أحسن، فجاءت طويلة، وجاءت سورها طويلة مناسبة للمقام الزمانى والمكانى.

تحديد السور المكية والمدنية.

قال السيوطى: وقد ورد عن ابن عباس وغيره عد المكى والمدنى.

وساق فى ذلك عدة أقوال ثم حرر الخلاف الواقع بينها.

القول الأول قول ابن عباس:

قال ابن سعد فى الطبقات: أنبأنا الواقدى، حدثنى قدامة بن موسى، عن أبى سلمة الحضرمى، سمعت ابن عباس قال: سألت أبى بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة؟ فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة.

وقال أبو جعفر النحاس فى كتبه (الناسخ والمنسوخ): حدثنى يموت ابن المزرع: حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى، أنبأنا أبو عبيدة معمر بن المثنى : حدثنا يونس بن حبيب: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: سألت مجاهدا عن تلخيص آى القرآن، المدنى من المكى فقال: سألت ابن عباس عن ذلك فقال:

سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: (قل تعالوا أتل..) إلى تمام الآيات الثلاث، وما تقدم من السور مدنيات.

ونزلت بمكة سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل- سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة، فى منصرفه من أحد- سورة بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج، سوى ثلاث آيات (هذان خصمان..) إلى تمام الآيات الثلاث فإنهم نزلن بالمدينة.

وسورة المؤمنون والفرقان وسورة الشعراء، سوى خمس آيات من آخرها نزلن بالمدينة: (والشعراء يتبعهم الغاوون..) (٢٢٤) إلى آخرها.

وسورة النمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان، سوى ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة: (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام...) (٢٧-٢٩) إلى تمام الآيات.

وسورة السجدة، سوى ثلاث آيات: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا..) (١٨٠٢٠) إلى تمام الآيات الثلاث.

وسورة سبأ وفاطر ويس الصافات وص والزمر، سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (٥٣) إلى تمام الثلاث آيات.

والحواميم السبع[١] وق والذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والصف والتغابن إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة.

والملك ون والحاقة وسأل سائل وسورة نوح والجن والمزمل إلا آيتين[٢]: (إن ربك يعلم أنك تقوم..) (٢٠)

والمدثر إلى آخر القرآن إلا (إذا زلزلت) و(إذا جاء نصر الله والفتح) و(قل هو الله أحد) و(قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) فإنهن مدنيات.

ونزلت بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم.

هكذا أخرجه بطوله، وإسناده جيد، رجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين.

القول الثانى- قول عكرمة والحسن:

وقال البيهقى فى دلائل النبوة: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو محمد بن زياد العدل، حدثنا محمد بن اسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى، حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى، حدثنا على بن الحسن بن

---

[١]) أى السور السبع التى تبدأ بقوله تعالى: (حم) وهى: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

[٢]) الموضع الذى ذكره حتى آخر السور آية واحدة.

واقد، عن أبيه حدثنى يزيد النحوى، عن عكرمة والحسن بن أبى الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكة: (اقرأ باسم ربك) ون ، والمزمل والمدثر، و(تبت يدا أبى لهب) و(إذا الشمس كورت)(و(سبح اسم ربك الأعلى) و(الليل إذا يغشى) والفجر والضحى، و(ألم نشرح) والعصر، والعاديات، والكوثر، و(ألهاكم التكاثر) و(أرايت) و(قل يا أيها الكافرون) وأصحاب الفيل، والفلق، و(قل أعوذ برب الناس) و(قل هو الله أحد) والنجم، وعبس، و(إنا أنزلناه)، و(الشمس وضحاها)، و(السماء ذات البروج) (والتين والزيتون) و (لإيلاف قريش) والقارعة و(لا أقسم بيوم القيامة) والهمزة، والمرسلات، وق و(لا أقسم بهذا البلد، و(السماء والطارق) و(اقتربت الساعة) وص، والجن، ويس، والفرقان، والملائكة[١]، وطه والواقعة، وطسم، وطس، وطسم وبنى إسرائل، والتاسعة[٢]، وهود، ويوسف، وأصحاب الحجر، والأنعام، والصافات، ولقمان، وسبأ، والزمر، وحم المؤمن، وحم الدخان، حم السجدة، وحم عسق[٣]، وحم، الزخرف، والجاثية، والأحقاف، والذاريات، والغاشية، وأصحاب الكهف، والنحل، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنون، والم السجدة، والطور، وتبارك، والحاقة، وسأل و(عم يتساءلون) والنازعات و(إذا السماء انشقت) و (إذا السماء انفطرت) والروم والعنكبوت.

وما نزل بالمدينة:

(ويل للمطففين) والبقرة وآل عمران، والأنفال والأحزاب، والمائدة والممتحنة، والنساء، و(إذا زلزلت)، والحديد، ومحمد، والرعد، والرحمن، و(هل أتى على الإنسان) والطلاق، و(لم يكن) والحشر، و(إذا جاء نصر الله) والنور، والحج، والمنافقون، والمجادلة، والحجرات، و(يا أيها النبى لم تحرم)[٤]، والصف، والجمعة، والتغابن والفتح، وبراءة.

---

[١]) الملائكة: هى سورة فاطر، سميت بذلك لذكر الملائكة فى أولها بقوله تعالى : (جاعل الملائكة رسلا)

[٢]) طسم: سورة الشعراء، طس: سورة النمل، طسم: سورة القصص. بنى إسرائيل: أى سورة الإسراء، والتاسعة يونس.

[٣]) حم عسق: سورة الشورى

[٤]) أى السورة التى تبدأ بهذه الجملة، وهى سورة التحريم.

قال البيهقى: والتاسعة، يريد بها سورة يونس قال: وقد سقط من هذه الرواية: الفاتحة والأعراف، وكهيعص[١]، فيما نزل بمكة.

قال وقد أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا محمد بن الفضل، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن زرارة الرقى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن: (إقرأ باسم ربك) فذكر معنى هذا الحديث، وذكر السور التى سقطت من الرواية الأولى فى ذكر ما نزل بمكة، وقال: للحديث شاهد فى تفسير مقاتل وغيره.

القول الثالث: رواية أخرى عن ابن عباس:

وقال ابن الضريس فى (فضائل القرآن): حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الرازى: أنبأنا عمرو بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال: كانت إذا أنزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيدالله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن، (اقرأ باسم ربك)، ثم ن، ثم (يا أيها المزمل)، ثم (يا أيها المدثر)، ثم (تبت يدا أبى لهب)، ثم (إذا الشمس كورت) ثم (سبح اسم ربك الأعلى) ثم (والليل إذا يغشى) ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم (إنا أعطيناك) ثم (ألهاكم التكاثر) ثم (أرأيت الذى يكذب) ثم قال يا أيها الكافرون) ثم (ألم تر كيف فعل ربك) ثم (قل أعوذ برب الفلق) ثم (قل أعوذ برب الناس) ثم (قل هو الله) ثم والنجم، ثم عبس، ثم (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ثم (والشمس وضحاها) ثم (والسماء ذات البروج) ثم (والتين) ثم (لإيلاف قريش) ثم القارعة ثم (لا أقسم بيوم القيامة) ، ثم (ويل لكل همزة لمزة) ، ثم (والمرسلات) ثم (ق) ثم (لا أقسم بهذا البلد) ثم (والسماء والطارق) ثم (اقتربت الساعة) ثم (ص)، ثم الأعراف، ثم (قل أوحى) ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بنى إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم

---

[١]) وهى سورة مريم

السجدة، ثم حم عسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم (إنا أرسلنا نوحا) ثم سورة إبراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنون، ثم تنزيل السجدة ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم (عم يتساءلون) ثم النازعات، ثم (إذا السماء انفطرت) ثم (إذا السماء انشقت) ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم (ويل للمطففين) فهذا ما أنزل الله بمكة.

وأما ما أنزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء ثم (إذا زلزلت) ثم الحديد، ثم القتال[١]، ثم الرعد ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم (إذا جاء نصر الله) ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصافات، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة.

القول الرابع- قول على بن أبى طلحة:

وقال أبو عبيد فى (فضائل القرآن): حدثنا عبد الله بن صالح ومعاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة والأنفال والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، و(الذى كفروا)[٢] والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر والممتحنة، والحواريين- يريد الصف[٣]، والتغابن، و(يا أيها النبى إذا طلقتم النساء)[٤]، و(يا أيها النبى لم تحرم[٥]. والفجر، والليل، و(إنا أنزلناه فى ليلة القدر)، و(لم يكن) و(إذا زلزلت) و(إذا جاء نصر الله) وسائر ذلك بمكة.

---

[١]) هى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

[٢]) أى السورة التى تبدأ بقوله تعالى: (الذين كفروا) وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى أيضا: سورة القتال

[٣]) أى سورة الصف: وسماها الحواريين لذكرهم فيها

[٤]) وهى سورة الطلاق

[٥]) وهى سورة التحريم.

القول الخامس- قول قتادة:

وقال أبو بكر بن الأنبارى: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى، حدثنا حجاج بن منهال، نبأنا هشام عن قتادة، قال: نزل فى المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، (يا أيها النبى لم تحرم) إلى رأس العشر[١]، (إذا زلزلت)، و(إذا جاء نصر الله) وسائر القرآن نزل بمكة.

وقال أبو الحسن بن الحصار فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) المدنى باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكى باتفاق ثم نظم فى ذلك أبياتا فقال:

يا سائلى عن كتاب الله مجتهدا

وعن ترتب ما يتلى من السور

كيف جاء بها المختار من مضر

صلى الإله على المختار من مضر[٢]

وما تقدم منها قبل هجرته

وما تأخر فى بدو وفى حضر.

ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد

يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر

تعارض النقل فى أم الكتاب وقد

تؤولت الحجر تنبيها لمعتبر[٣]

أم القرآن وفى أم القرى نزلت

ما كان للخمس قبل الحمد من أثر[١]

---

[١]) أى آخر الآيات العشر من السورة.

[٢]) مضر: قريش

[٣]) أم الكتاب: هى الفاتحة، وكذلك أم القرآن. وأم الشئ أصله ومرجعه.

وبعد هجرة خير الناس قد نزلت

عشرون من سور القرآن فى عشر[٢]

فأربع من طوال السبع أولها

وخامس الخمس فى الأنفال ذى العبر

وتوبة الله إن عدت فسادسة

وسورة النور والأحزاب ذى الذكر

وسورة لنبى الله محكمة

والفتح والحجرات الغر فى غرر[٣]

ثم الحديد ويتلوها مجادلة

والحشر ثم امتحان الله للبشر[٤]

وسورة فضح الله النفاق بها

وسورة الجمع تذكار لمدكر[٥]

وللطلاق وللتحريم حكمهما

والنصر والفتح تنبيها على العمر

هذا الذى اتفقت فيه الرواة له

وقد تعارضت الأخبار فى أخر.

---

[١]) أم القرى: هى مكة

[٢]) فى عشر: أى فى عشر سنين، مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فى المدينة، منذ هجرته حتى وفاته.

[٣]) سورة لنبى الله أى سورة محمد صلى الله عليه وسلم الغر: جمع غراء، أى المشتهرات. غرر: جمع غرة، وهى- فى أصل اللغة- بياض فى ناصية الفرس، والمراد هنا: أنهن واضحات متميزات.

[٤]) امتحان الله: يريد سورة الممتحنة

[٥]) المراد: سورة المنافقين، وسورة الجمعة.

فالرعد مختلف فيها متى نزلت

وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر

ومثلها سورة الرحمن شاهدها

مما تضمن قول الجن فى الخبر[١]

وسورة للحواريين قد علمت

ثم التغابن والتطفيف ذو النذر[٢]

وليلة القدر قد خصت بملتنا

ولم يكن بعدها الزلزال فاعتبر[٣]

وقل هو الله من أوصاف خالقنا

وعوذتان ترد البأس بالقــدر

وذا الذى اختلفت فيه الرواة له

وربما استثنيت آى من السور

وما سوى ذاك مكى تنزله

فلا تكن من خلاف الناس فى حصر[٤]

فليس كل خلاف جاء معتبرا

إلا خلاف له حظ من النظر[٥]

---

[١]) أى يشهد لنزولها بمكة مجئ ذكر الجن فيها ولقاء النبى صلى الله عليه وسلم بهم كـان فى مكة. (أنظر سيرة ابن هشام: سعى الرسول إلى ثقيف يطلب النصرة).

[٢]) سورة الحواريين: هو سورة الصف كما سبق ص٣٢حا٣

[٣]) خصت بملتنا: أى ليلة القدر- التى نزلت فيها سورة، من سور القرآن سميت بها- من خصائص أمة محمد صلى الله عليه وسم. لم يكن: أى سورة البينة.

[٤]) حصر: ضيق وحبش.

[٥]) حظ من النظر: أى نصيب من الاعتبار، لوجود دليل يعتمد عليه فيه.

وأما السور التى اختلف العلماء فــى مكيتــها ومدنيتــها فقــد عقــد لها الإمام السيوطى- رحمه الله- فصلا خاصــا لتحريــر الخــلاف فيــها.. وهاك هو..

فصل فى
تحرير السور المختلف فيها

سورة الفاتحة:

الأكثرون على أنها مكية، بل ورد أنها أول ما نزل كما سيأتى فى النوع الثامن، واستدل لذلك بقوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) (الحجر: ٨٧) وقد فسرها صلى الله عليه وسلم بالفاتحة كما فى الصحيح[١] وسورة الحجر مكية باتفاق، وقد امتن على رسوله فيها بها ، فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها، إذ يبعد أن يمتن عليه بما لم ينزل بعد، وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، ولم يحفظ أنه كان فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة. ذكره ابن عطية وغيره.

وقد روى الواحدى من طريق العلاء بن المسيب، عن الفضل بن عمرو، عن على بن أبى طالب قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش.

واشتهر عن مجاهد القول بأنها مدنية. أخرجه الفريابى فى تفسيره، وأبو عبيد فى الفضائل بسند صحيح عنه.

قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد؛ لأن العلماء على خلاف قوله، وقد نقل ابن عطية القول بذلك عن الزهرى وعطاء وسوادة بن زياد وعبد الله بن عبيد بن عمير.

وورد عن أبى هريرة بإسناد جيد، قال الطبرانى فى الأوسط حدثنا عبيد بن غنام، نبأنا أبو بكر بن أبى شيبة، نبأنا أبو الأحوص، عن منصور عن مجاهد، عن أبى هريرة، أن إبليس رن حين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة. ويحتمل أن الجملة الأخيرة مدرجة من قول مجاهد.

وذهب بعضهم إلى أنها نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة، مبالغة فى تشريفها.

وفيها قول رابع: أنها نزلت نصفين: نصفها بمكة ونصفها بالمدينة، حكاه أبو الليث السمرقندى.

---

[١]) صحيح البخارى كتاب التفسير، ب / ماجاء فى فاتحة الكتاب .

قلت: والذى أميل إليه أن سورة الفاتحة نزلت بمكة ولا سيما أن الصلاة لا تقوم إلا بها.

سورة النساء:

زعم النحاس أنها مكية، مستندا إلى أن قوله: (إن الله يأمركم..)(٥٨) نزلت بمكة اتفاقا فى شأن مفتاح الكعبة، وذلك مستند واه، لأنه لا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة نزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية، خصوصا أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة مدنى، ومن راجع أسباب نزول آياتها عرف الرد عليه، ومما يرد عليه أيضا ما أخرجه البخارى عن عائشة قالت: ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. ودخولها عليه كان بعد الهجرة اتفاقا: وقيل: نزلت عند الهجرة[١]

سورة يونس:

المشهور أنها مكية، وعن ابن عباس روايتان، فتقدم فى الآثار السابقة أنها مكية. وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفى عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه، ومن طريق خصيف، عن مجاهد، عن ابن الزبير.

وأخرج من طريق عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس أنها مدنية، ويؤيد المشهور ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك- أو من أنكر ذلك منهم- فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فأنزل الله تعالى: (أكان للناس عجبا) الآية(٢).

سورة الرعد:

تقدم من طريق مجاهد، عن ابن عباس وعن على بن أبى طلحة: أنها مكية، وفى بقية الآثار أنها مدنية.

---

[١]) صحيح البخارى: كتاب فضائل القرآن، باب: تاليف القرآن. وهذا دليل صريح.

وأخرج أبو الشيخ مثله عن قتاده، وأخرج الأول عن سعيد ابن جبير.

وقال سعيد بن منصور فى سننه: حدثنا أبو عوانة، عن أبى بشر قال: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: (ومن عنده علم الكتاب..) (٤٣) هو عبد الله بن سلام فقال: كيف وهذه السورة مكية

ويؤيد القول بأنها مدنية: ما أخرجه الطبرانى وغيره عن أنس أن قوله تعالى: (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) إلى قوله: (وهو شديد المحال)[١] نزل فى قصة أربد بن قيس وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى يجمع به بين الاختلاف: أنها مكية إلا آيات منها.

سورة الحج:

تقدم من طريق مجاهد، عن ابن عباس: أنها مكية إلا الآيات التى استثناها[٢] وفى الآثار الباقية: أنها مدنية..

أخرج ابن مردويه من طريق العوفى، عن ابن عباس ومن طريق ابن جريج وعثمان، عن عطاء عن ابن عباس، ومن طريق مجاهد عن ابن الزبير: أنها مدنية.

قال ابن الفرس فى (أحكام القرآن): وقيل إنها مكية إلا : (هذان خصمان..) الآيات وقيل: إلا عشر آيات. وقيل: مدنية إلا أربع آيات: (وما أرسلنا من قبلك من رسول) إلى (عقيم) (٥٢-٥٥) قاله قتادة وغيره. وقيل: كلها مدنية، قاله الضحاك وغيره، وقيل: هى مختلطة، فيها مدنى ومكى، وهو قول الجمهور انتهى. ويؤيد ما نسبه إلى الجمهور: أنه ورد فى آيات كثيرة منها أنه نزل بالمدينة، كما حررناه فى أسباب النزول[٣]

---

[١]) الآيات ٨-١٣ من سورة الرعد ومكية يونس والرعد أرجح عندى من مدنيتهما

[٢]) الآيات ١٩-٢١ من سورة الحج

[٣]) لباب النقول فى أسباب النزول للإمام السيوطى.

سورة الفرقان:

قال ابن الفرس: الجمهور على أنها مكية، وقال الضحاك: مدنية.

سورة يس:

حكى أبو سليمان الدمشقى له قولا: إنها مدنية، قال: وليس بالمشهور.

سورة ص:

حكى الجعبرى قولا إنها مدنية، خلاف حكاية جماعة الإجماع على أنها مكية.

سورة محمد: حكى النسفى قولا غريبا إنها مكية.

سورة الحجرات: حكى قول شاذ أنها مكية.

سورة الرحمن:

الجمهور على أنها مكية، وهو الصواب، ويدل له ما رواه الترمذى والحاكم عن جابر قال: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه سورة الرحمن حتى فرغ. قال: (ما لى أراكم سكوتا؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا، ما قرأت عليهم من مرة: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا: ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب. فلك الحمد" قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين[١] وقصة الجن كانت بمكة.

وأصرح منه فى الدلالة ما أخرجه أحمد فى مسنده بسند جيد: عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يسمعون: (فبأى آلاء ربكما تكذبان)[٢].

وفى هذا دليل على تقدم نزولها على سورة الحجر.

---

[١]) الترمذى أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرحمن، والمستدرك: كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الرحمن

[٢]) أخرجه أحمد فى المسند والبزار والحاكم، وقال الهيثمى فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن. الفتح الربانى . أبواب التفسير سورة الرحمن (٢٩٢/١٨).

سورة الحديد:

قال ابن الفرس: الجمهور على أنها مدنية، وقال قوم: إنها مكية، ولا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا، ولكن يشبه صدرها أن يكون مكيا.

قلت الأمر كما قال، ففى مسند البزار وغيره عن عمر: أنه دخل على أخته، قبل أن يسلم، فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد، فقرأها ، وكان سبب إسلامه.

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال: لم يكن شئ بين إسلامه وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلا أربع سنين: (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد...) الآية(١٦)[1].

سورة الصف:

المختار أنها مدنية، ونسبه ابن الفرس إلى الجمهور ورجحه، ويدل له ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه. فأنزل الله سبحانه: (سبح الله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم(١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(٢))(٢،١) حتى ختمها، قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها[2].

سورة الجمعة:

الصحيح أنها مدنية، لما روى البخارى عن أبى هريرة قال: كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم، فأنزل عليه سورة الجمعة: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم..) (٣) قلت: من هم يا رسول الله؟ .. الحديث[3] ومعلوم

[1]) المستدرك: كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الحديد

[2]) المستدرك: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الصف.

[3]) أخرجه الإمام البخارى: كتاب التفسير سورة الجمعة، باب:قوله: (وآخرين منهم..)
ومسلم: كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس.

أن إسلام أبى هريرة بعد الهجرة بمدة. وقوله: (قل يا أيها الذين هادوا)(٦) خطاب لليهود، وكانوا بالمدينة، وآخر السورة نزل فى انفضاضهم حال الخطبة لما قدمت العير، كما فى الأحاديث الصحيحة[1] فثبت أنها مدنية كلها.

سورة التغابن: قيل: مدنية، وقيل مكية إلا آخرها.

قلت: يرجح كونها مكية.

سورة الملك: فيها قول غريب : إنها مدنية

سورة الإنسان:

قيل مدنية، وقيل: مكية إلا آية واحدة: (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (٢٤) بل هى مكية كلها.

سورة المطففين:

قال ابن الفرس: قيل: إنها مكية، لذكر الأساطير فيها وقيل مدنية، لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فسادا فى الكيل.

وقيل: نزلت بمكة إلا قصة التطفيف. وقال قوم: نزلت بين مكة والمدينة. انتهى.

قلت: أخرج النسائى وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل[2].

سورة الأعلى:

الجمهور على أنها مكية، قال ابن الفرس: وقيل: إنها مدنية، لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها.

[1]) انظر البخارى: كتاب التفسير/ سورة الجمعة، باب: (وإذا رأو تجارة أو لهوا) ومسلم: كتاب الجمعة: قوله تعالى (وإذا رأو تجارة.....)

[2]) أخرجه ابن ماجه فى التجارات، باب: التوقى فى الكيل والوزن. والنسائى فى التفسير

قلت: ويرده ما أخرجه البخارى عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشئ فرحهم به، فما جاء حتى قرأت: (سبح اسم ربك الأعلى) فى سور مثلها[١].

سورة الفجر:

فيها قولان، حكاهما ابن الفرس. قال أبو حيان: والجمهور على أنها مكية.

سورة البلد:

حكى ابن الفرس فيها أيضا قولين وقوله: (بهذا البلد) يرد القول بأنها مدنية.

سورة الليل:

الأشهر أنها مكية، وقيل مدنية لما ورد فى سبب نزولها من قصة النخلة كما أخرجناه فى أسباب النزول. وقيل: فيها مكى ومدنى.

سورة القدر:

فيها قولان، والأكثر: أنها مكية. ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه الترمذى والحاكم، عن الحسن بن على: أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية على منبره، فساءه ذلك، فنزلت: (إنا أعطيناك الكوثر) ونزلت (إنا أنزلناه فى ليلة القدر..) الحديث[٢] قال المزى: وهو حديث منكر[٣].

---

١) البخارى: التفسير، باب تفسير سورة (سبح اسم ربك الأعلى)

٢) الترمذى أبواب تفسير القرآن ومن سورة ليلة القدر. والحاكم فى المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب معاتبة رجل الحسن فى أمر الخلافة وجوابه.

٣) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى- الموضع السابق.

سورة لم يكن: قال ابن الفرس: الأشهر أنها مكية.

قلت: ويدل لمقابله ما أخرجه أحمد عن أبى حبة البدرى قال: لما نزلت: (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب...) إلى آخرها، قال جبريل، يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا.. الحديث[١] وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية، واستدل به.

سورة الزلزلة:

فيها قولان ويستدل لكونها مدنية: بما أخرجه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره..) الآية، قلت يا رسول الله، إنى لراء عملى؟ الحديث وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة، ولم يبلغ إلا بعد أحد.

سورة العاديات:

فيها قولان، ويستدل لكونها مدنية: بما أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس: قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا، فلبثت شهرا لا يأتيه منها خبر، فنزلت (والعاديات....) الحديث.

سورة التكاثر: أخرج عن قتادة أنها نزلت فى اليهود.

وأخرج البخارى عن أبى بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن- يعنى "لو كان لابن آدم واد من ذهب" حتى نزلت (ألهاكم التكاثر)[٢].

وأخرج الترمذى: عن على قال: ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت[٣] وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة كما فى الصحيح فى قصة اليهودية[٤]

---

١) الفتح الربانى بترتيب المسند. كتاب التفسير سورة البينة.

٢) البخارى: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال، وصحيح مسلم: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا

٣) سنن الترمذى: أبواب تفسير القرآن، باب: وسورة ألهاكم التكاثر.

٤) صحيح البخارى: كتاب الجنائز، باب: ما جاء فى عذاب القبر، قلت: وليس فى السورة ذكر صريح لعذاب القبر، غير أن فيها (كلا) فهى مكية.

سورة أرأيت:

فيها قولان، حكاهما ابن الفرس.

سورة الكوثر:

الصواب أنها مدنية، ورجحه النووى فى شرح مسلم، لما أخرجه مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، فرفع رأسه متبسما، فقال: "أنزلت على آنفا سورة" فقرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر..) حتى ختمها.. الحديث[١]

سورة الإخلاص:

فيها قولان، لحديثين فى سبب نزولها متعارضين وجمع بعضهم بينهما بتكرر نزولها، ثم ظهر لى بعد ترجيح: أنها مدنية، كما بينته فى أسباب النزول.

المعوذتان:

المختار أنهما مدنيتان، لأنهما نزلتا فى قصة سحر لبيد بين الأعصم، كما أخرجه البيهقى فى الدلائل.[٢]

---

[١]) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من كل سورة سوى براءة، وذلك لأن أنسا كان خادما للرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، وقول أنس بين أظهرنا.. دليل قاهر على كونها مدنية.

[٢]) قلت: بل أخرجه البخارى فى الطب، ومسلم فى كتاب السلام.

أهداف القرآن
المكي والمدني

أنزل الله القرآن قبل وبعد الهجرة لأهداف عامة وهي : الهداية ، والإعجاز ، والتعبد . قال تعالي (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .....)[١] غير أنه لما كان القرآن الكريم نازلا في بيئتين مختلفتين في العقيدة والتصورات والأخلاق كان من حكمة منزله – سبحانه – مراعاة مقتضى الحال في كل بيئة علي حدة ، ولذا كانت للقدر القرآني النازل في مكة أهدافه الخاصة ، والمختلفة عن أهداف ما نزل في المدينة بعد الهجرة ...

ويرجع هذا الاختلاف إلي طبيعة المجتمع المكي ، حيث عبادة الأوثان والبغي والظلم ، والعادات السيئة الرذيلة ، وإلي طبيعة المجتمع المدني حيث مواجهة أهل الكتاب وإفسادهم ، والذي كان من أخطره ظاهرة النفاق..، فاقتضى كل مقام مقالا ، وجاء القرآن وافيا بكل الهداية اللازمة لكل من القريتين : مكة والمدينة ، وهاك بيانه .

<u>أولا : أهداف القرآن في العهد المكي .</u>

كان المقام في العهد المكي مقام تأسيس وتأصيل ، أو تخلية وتحلية :تخلية للمجتمع من شركه ورذائله ، وتحلية بإعطاء التصور والاعتقاد الصحيح ، ورفع قواعد وأصول العبادات ، ولا سيما عبادة الصلاة والزكاة... ، وكذا تثبيت ركائز الأخلاق والمعاملات الكريمة ، إضافة إلي ضرورة تهيئة النفوس المؤمنة لمعرفة أعدائها ، وطبيعة معاملتهم ، وتعبئتها بعداوتهم ،

علي ما سترى في هذا البيان ... .

١- البقرة ١٨٥.

٢ - الطور ٣٥، ٣٦ .

١- تصحيح وتحرير التصور والاعتقاد : وفيه ثلاثة محاور :

المحور الأول : الإلهيـــــات .

المحور الثاني : النبـــــوات .

المحور الثالث : السمعيـــــات .

أما محور الإلهيات ... فقد قدم فيه القرآن المكي تصورا عقليـــا واقعيـا وسطا بين إنكار الألوهية وتعدد الآلهة.. كما قال تعالي: (أم خلقوا من غـير شيء أم هم الخالقون) [١] كما قال : (أأرباب متفرقون خـير أم الله الواحـد القهار)[٢]

وقال : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا ســلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)[٣]

فقرر حقيقة وجود الله ، وضرورة وحدانيته – سبحانه – كمـا قـال : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسـدتا فسبحان الله عما يصفون)[٤] وأبطل الشرك والشركاء بأسلوب سهل معجـز ، كما في قول الواحد الأحد (أفمن يخلق كمن لا يخلـق أفـلا تذكـرون)[٥] وأثبت للإله الحق كل كمال وجلال ، قال تعالي : (تبـارك اسـم ربـك ذي الجلال والإكرام)[٦] ونفى عنه كل نقص فقال (ليس كمثلـه شـيء وهـو السميع البصير)[٧]

---

(١) الطور ٣٥ ، ٣٦

(٢) يوسف ٣٩

(٣) الزمر ٢٩

(٤) الأنبياء ٢٢،٢١

(٥) النحل ١٧

(٦) الرحمن ٧٨ .

(٧) الشورى ١١.

وأما محور النبوات .. فقد بين القرآن أن النبوة منحـة مـن الله لمـن اصطفاه من عباده ، فليست لأي أحد ، وليس لأي أحد أن يدعيها ، فإنها تأتي رغما لا رغبا ، قال – تعالي – (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن النـاس إن الله سميع بصير)[١] ، كما بين – سبحانه – أن الله يجعـل رسـالته فـي المقام .. وعند الرسول الذي يعلمه أهلاً لتحملها وأدائها ، يقول – جـل شـأنه –(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتـي رسـل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ...) [٢]

وأنه لا يستطيع أحد أن يفتئت علي الله ويدعي النبوة مـن دون الله ، كما في قوله – عـز وجـل – (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منـه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين) [٣] وقوله: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ...)[٤] وقوله (ولئـن شـئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا)[٥] كما بين أنه لا نبوة في النساء فقال ــ سبحانه ــ (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[٦].

وأما محور السمعيات ... فقد أخبر القرآن النـازل فـي مكـة قبـل الهجرة عن أمور عظام من أعظمها قضية البعث بعد الموت ، وكادت تكـون قضية القضايا التي اهتم بها القرآن في العهد المكي ، حيث أقام عليها الأدلـة الداعية إلي الإيمان بها ــ ما بين قياس عقلي (كما بدأكـم تعـودون)[٧] ، وقياس أولوي (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ولـه المثـل

---

(٨) الحج ٧٥ .

(٢) الأنعام ١٢٤

(٣) الحاقة ٤٤-٤٦.

(٤) يونس ١٦.

(٥) الإسراء ٨٦.

(٦) الأنبياء ٧ .

(٧) الأعراف ٢٩.

الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)[١] ، وأدلة كونية (نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفر أيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * .....* أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * .....* أفر أيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون *.....* أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * .....)[٢] وتحدٍ لتصوراتهم الضالة (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم ..... الآية)[٣] ، وقسم مؤكد (فوربك لنحشرنهم)[٤] ، (قل بلي وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك علي الله يسير)[٥]

٢ــ وضع أصول العبادات .

كان من أهداف القرآن النازل في العهد المكي تأسيس أصول العبادات ، ولا سيما الصلاة والزكاة ... كما هو ثابت من أن الصلوات الخمس فرضت على الأمة ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة ، وقبل ذلك كانت صلاة الليل والنافلة ، كما حدثت بذلك سورة المزمل المكية ، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن في العهد المكي ، يقول الله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ..... الآية)[٦] ، ومن قبلها نزولا سورة المدثر (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر *)[٧]

---

(١) الروم ٢٧.

(٢) الواقعة ٥٧ ــ ٧٣ .

(٣) الإسراء ٤٩-٥١.

(٤) مريم ٦٨

(٥) التغابن ٧

(٦) المزمل الآية الخاتمة .

(٧) الآيات ١-٥ .

ومن ذلك أيضا سورة الأعلى ، وفيها (قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى *)[١] ، وفي سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون *الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون *)[٢]

ويؤصلهما القرآن فيربطهما بالشريعة السابقة مع موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ كما في سورة يونس وهي مكية (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)[٣] ، وفي سورة مريم ، على لسان عيسى – عليه السلام – (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا *)[٤].

وجماع أقوال المفسرين في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر هكذا قولان :

أولهما : التنبيه إلى شرفهما على سائر ا لفرائض الأخرى .

ثانيهما : التمثيل والإشارة بهما إلى بقية الفرائض ، لا للحصر ، على اعتبار أن الصلاة مثال للعبادات البدنية ، والزكاة مثال للعبادات المالية، ولا ثالث لهما .

قلت : أو على اعتبار الصلاة مثالا للعبادات المتعلقة بحقوق الخالق – عز وجل – والزكاة مثالا للعبادات المتعلقة بحقوق المخلوقين ، وأيا ما كان الأمر فالقول الثاني من هذين القولين هو الأولى بالقبول ، والأحظى لدى ذي القلب العقول .

٣ــ رفع قواعد صرح الفضيلة والأخلاق .

وذلك بالدعوة العامة إلى الأخلاق العظيمة ، والمعاملات الكريمة ، دعوةً تقوم على الترغيب والترهيب ،والإغراء بالمدح والثناء وأحسن الجزاء، والإيعاد بالذم والشقاء وأسوأ الجزاء .

---

(١) الآيتان ١٤-١٥

(٢) الآيات ١-٤

(٣) يونس ٨٧.

(٤) الآيتان ٣٠-٣١.

تقرأ في ذلك مثلا وصايا سورة الإسراء (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ..... وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ..... ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ..... ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .....ولا تقربوا الزنا ....ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ..... ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ..... ولا تقف ما ليس لك به علم ..... ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا)([1])

وكذلك في سورة الأنعام وغيرها من السور النازلة في العهد المكي ... ومن المقامات القرآنية المكية الجامعة لهذه الأهداف الثلاثة [الاعتقاد – والعبادة – والأخلاق والمعاملات] ما قصه الله علينا في سورة لقمان ، حيث يعظ لقمان ابنه (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه .... وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ..... يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله ..... يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك .....ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ..... واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)([2])

٤– تهيئة القلوب المؤمنة لأحكام أهل الذمة .

لما كان الإسلام دينا عالميا يفتح البلاد ليهدي العباد ، ولما كان دينا ربانيا شرعه عالم الغيب – سبحانه – لا جرم نزلت الأقباس القرآنية النازلة قبل الهجرة تكشف الغطاء عن طبيعة المجتمع في يثرب ، وتفصل طوائف البشر فيه ممن سيواجههم الإسلام ويجادلهم المسلمون ... ليعرف أهل

([1]) الإسراء ٢٣–٣٧

([2]) لقمان ١٣–١٩.

الإيمان مالهم وما عليهم في صحبة أهل المخالفة والكفران ، فكانت الإشارة لكل قوم بما يحدد طبيعة العلاقة معهم كيف تكون .

نجد في سورة الفاتحة قول ربنا الفتاح – سبحانه – (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)([1]) وفسر النبي ﷺ (المغضوب عليهم) بأنهم اليهود ، و (الضالين) بأنهم (النصارى)([2]) وسورة الفاتحة مكية على الصحيح بدليل :

١) قول الله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم)([3]) حيث يمتن الله تعالى على رسوله محمد ﷺ في سورة الحجر المكية إجماعا بأنه أنزل عليه السبع المثاني ، وهي سورة الفاتحة ، وخصه بها ، ولا يسوغ الامتنان بالنعمة قبل حصولها .

٢) قول النبي ﷺ " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب "([4]) والإجماع منعقد على أن الصلاة فرضت قبل الهجرة ، وعلى أنه لا صلاة بدون قراءة الفاتحة .

هذا ... وفي القرآن المكي عدد من السور والآيات التي عرضت قصة بني إسرائيل ، ما بين إجمال حينا وتفصيل حينا آخر على حسب مقتضى السياق ، بما يبرز الجوانب السلبية وغيرها في حياة هذه الطائفة البشرية ، مثل كفرهم برسالة الله ، وتكذيبهم برسله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، إلى غير ذلك مما يمهد لعداوتهم والتبرؤ منهم إيمانا بالله وولاء له ، مما سينزل في العهد المدني، مثل قول الله تعالى في سورة آل عمران المدنية (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك

([1]) خاتمة سورة الفاتحة.

([2]) الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد (٦٨/١٨).

([3]) الحجر ٨٧ .

([4]) البخارى – ك : الأذان – ب : وجوب القراءة للإمام والمأموم ....، ومسلم – ك : الصلاة – ب : وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة.

فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير)([1])

ومن السور المكية التي عرضت لذكر أهل الكتاب سورة الأعراف من الآية الثالثة والمائة إلي الآية السابعة والسبعون والمائة ، وتقص مجيء سيدنا موسى – عليه السلام – إلى فرعون وإنقاذه لبني إسرائيل ، ثم نكول بني إسرائيل عن تحمل رسالة ربهم ، واتخاذهم العجل من دون الله ، وتمردهم على رسل الله وأنبيائه .

وكذلك سورة الإسراء التي بدأت حديثها عن بني إسرائيل من الآية الثانية بعد الآية الأولى التي ذكرت المسجد الأقصى أيضا وهي تعتبر مقدمة للسورة، واستمر الحديث عنهم خلال السورة حتى الآية الرابعة بعد المائة من أواخر السورة (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) وهنا يصفهم الله تعالى بالإفساد في الأرض مرتين والعلو فيها ويتوعدهما بالعذاب .

ومثل ذلك سورة العنكبوت التي تؤصل أساسا من أسس الدعوة إزاء بني إسرائيل ، إذ يقول الله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون *وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون)([2]).

وكذلك في سورة الزخرف ، في قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإئه .... – إلى قوله – (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * .....)([3]) ، وفي ذلك تنبيه إلى شرك أهل الكتاب وخاصة النصارى حيث أشركوا مع الله تعالى عبده عيسى ابن مريم عليه السلام .

([1]) آل عمران ٢٨.

([2]) العنكبوت ٤٦ ، ٤٧.

([3]) الزخرف ٤٦– ٦٧

وهكذا تأسس الدين في نفوس الناس ، وتأصلت العقيدة الصحيحة في قلوب المؤمنين ، وهكذا هيأ القرآن الكريم المسلمين خلال العهد المكي لاستقبال المرحلة الجديدة ، بطبيعتها الجديدة ، خلال العهد المدني ....، على ما يأتيك بيانه الآن بعون الله تعالى وتوفيقه ، وهو العليم الحكيم .

ثانيا : أهداف القرآن في العهد المدني.

إن المجتمع المدني بعد الهجرة المباركة كان مؤسسا على عقيدة صحيحة راسخة كما سبق بيانه ، حيث عَلِم عِلم اليقين أن الخلق لله وحده ، وبالتالي فالأمر له وحده أيضا كما علمهم الله في مكة (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)([1]).

وفي الحديث الصحيح عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " إنما نزل أول ما نزل منه – تعني القرآن – سورة من المفصل ذكر فيها الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ذكر الحلال والحرام ، ..... الحديث "([2]) ، وهكذا كان المجتمع المدني مهيئا للتفريع والتشريع على ما سبق في العهد المكي من تأسيس وتأصيل .

كما كان المجتمع المدني الذي قدم عليه الإسلام مشتملا بعض العناصر البشرية الغريبة عن العرب ، مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهؤلاء كانوا أهل جدل ومراء ، ومكر ودهاء .

ثم بظهور قوة الإسلام في المدينة مناهضة ومجاهدة قوى الكفر ، وعلى رأسهم أهل الكتاب ، ظهرت فرقة النفاق ، أولئك الذين عاشوا حياتهم بوجهين متناقضين كما قال الله تعالي (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)([3]) ، هكذا ... (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)([4]).

([1]) الأعراف ٥٤ .

([2]) رواه البخارى ، ك / فضائل القرآن ب / تأليف القرآن.

([3]) البقرة ١٤.

([4]) النساء ١٤٣.

ولهذا نزل القرآن في العهد المدني ليواجه كل هذه الجبهات مواجهة موجهة إلى أهدافها ، فلم تخالف هدفا منها حتى أصابته إصابة خلفت وراءها كل أثر طيب نافع ، وكل إصلاح تطبيقي واقع ، وهاك بيانه .....

١- إقامة المجتمع المسلم في المدينة على قلب رجل واحد: (الإخاء) .

لقد عني الإسلام بتوثيق الرابطة الإيمانية بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم ، ووجه القرآن الكريم إلى ذلك توجيها عظيما فيما نزل منه في المدينة بعد الهجرة .

ولك أن تقرأ هذا في سورة الحجرات التي حجر الله من خلالها على جملة من السلبيات الاجتماعية التي من شأنها أن تضعف الأخوة بين أفراد المجتمع وطوائفه ... مثل : انتشار النميمة – اتباع الهوى من دون الهدى – التخاصم والتقاتل وما يكون فيه من بغي وعدوان – عدم اهتمام الناس بالصلح بين أهل الخصومة – السخرية – اللمز – التنابز بالألقاب – إساءة الظن بالمسلمين – التجسس – الغيبة – وغير ذلك ... كما في قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ... – إلى قوله – : ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) (١).

بل جعل الإسلام الأخوة الإيمانية بين المهاجرين والأنصار أحد أسباب التوارث بين الحيين فترة ، ثم صارت أخوة الإيمان تفضل أخوة النسب وترجح بها ، ثم رد الله الأمور إلى نصابها الأصلي الصحيح ، فقال سبحانه : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ...)(٢) ، كما حقن الإسلام دماء الأوس والخزرج فتصالح الحيان ، والتحم المجتمعان : المهاجرون والأنصار .. ، كما وصف الله تعالى فقال : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو

---

(١) الحجرات ١٢.

(٢) الأنفال الآية الخاتمة.

أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)(١) وامتن الله بذلك على المؤمنين فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)(٢) وهذا كله فيما نزل من القرآن الكريم بعد الهجرة .

٢ – نشر الشريعة وتفصيلها .

كان من أهداف القرآن المدني أنه قصد إلى تفصيل التشريع الذي كان مجملا أو مختصرا في مكة ، فلما تأسس في القلوب الاعتقاد الصحيح ، وتأصل أصل العبادات والمعاملات قبل الهجرة ، كانت الأجواء في المدينة بعد الهجرة مناسبة للتكليف بالتشريع المفصل ، فشرع الله بقية الواجبات :

مثل الصيام (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * ..... كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون)(٣)

والحج (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج .....وأتموا الحج والعمرة لله ..... الحج أشهر معلومات .....واذكروا الله في أيام معدودات ..... *)(٤)

والتحريم النهائي للمحرمات ، كما قال في الخمر (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)(٥) ، بعد ما قال في سورة النحل المكية (ومن

---

(١) الأنفال ٦٢، ٦٣ .

(٢) آل عمران ١٠٣ .

(٣) البقرة ١٨٣-١٨٧.

(٤) البقرة ١٨٩-٢٠٣.

(٥) المائدة الآية ٩٠.

ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون)[١] تمهيدا للتحريم القاطع في العهد المدني ، وقال في الربا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين)[٢] بعد ما قال في سورة الروم المكية : (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)[٣] ، وفرض الحجاب وقال : (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما)[٤] وقال : (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ...)[٥] ، وفرض الحدود التي حفظت بها الحقوق ، وأمنت بها الروعات ، وجمحت بها النفوس الباغيات ، كحد القتل والحرابة والسرقة والزنا وغيره ، فأصبح المجتمع الإسلامي في المدينة آمنا مطمئنا في كل جنباته الداخلية ، فكان هذا الأمن الداخلي النابع من ذات الصدور سببا رئيسا من أسباب الثبات في مواجهة الجبهات الخارجية والانتصار عليها كما سيبين لك فيما يلي : .

٣ – مواجهة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) .

من أول ما أعلن الإسلام عن نفسه بمكة يعلم الناس وحدانية الله – جل شأنه – والكافرون قيام في وجهه ليردوه عن ذلك ، وليحتفظوا بهذا النظام الجاهلي الذي يسوّدهم فوق رؤوس الناس أسيادا ، فمنذ أن قال الله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين)[٦] وقام النبي ﷺ ينذرهم بين يدي عذاب شديد قال له عمه أبو لهب – لعنه الله – تبّا لك يا محمد سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ وقام اللعين ينفر الناس عن اتباع خاتم النبيين ﷺ ، ويقول الله

---

(١) النحل الآية ٦٧.

(٢) البقرة الآية ٢٧٨.

(٣) الروم الآية ٣٩.

(٤) الأحزاب ٥٩.

(٥) الأحزاب ٥٣.

(٦) الشعراء ٢١٤.

ﷻ (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا)[١] ، ولاقى المؤمنون في مكة صنوف الأذى والتعذيب من الكثرة الكافرة ، ويقولون : يا رسول الله أفلا نقاتلهم ؟ ويقول ﷺ : لا إني لم أومر بهذا ، ويقول الله ﷻ : (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا * وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا *)[٢] ويقول : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتولّ عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين *)[٣] ، إلى غير ذلك من آيات تأمر بالإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم .

حتى كانت الهجرة وبدأ العهد المدني ، وجاور المسلمون هناك أهل الكتاب وعاهدهم النبي ﷺ على المسالمة فوجدهم أهل غدر وخيانة ، يؤلبون الكافرين ويحزبونهم ضد المؤمنين ، ولم يحفظوا للإسلام عهدا ، وقد بات المسلمون معبئين ومهيئين لملاقاة عدوهم بكل ثبات وصمود ، كما قال قائلهم: امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، بل إن أحد الصحابة قبل أن يسلم كان قد لقي أباه المسلم في بعض الغزوات ، وبعد أن أسلم ذكّر أباه بذلك اللقاء فقال : يا أبت أتذكر يوم كذا .. كنت كلما رأيتك أشحت بوجهي عنك لئلا أقتلك ، فقال أبوه : أما إني لو رأيتك لقتلتك . إلى هذا الحد الكبير بلغوا في موالاة الله ﷻ ورسوله ﷺ من دون الكافرين ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وأثنى الله عليهم بمثل قوله (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)[٤]

وكانت شريعة الجهاد قد بدأت بقول الله ﷻ (أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

---

(١) الجن ١٩.

(٢) المزمل ١٠-١١.

(٣) الذاريات ٥٢-٥٥.

(٤) الأحزاب ٢٣.

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز *)[١]

وختمت بقول الله ﷻ : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[٢] ، وقال : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)[٣] ، وكذلك قال : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين)[٤] ، وهؤلاء جميعا أعداء صرحوا بعداوتهم ورفعوا رايات الحرب ، على خلاف قوم آخرين منعتهم طبيعتهم النفسية الضعيفة المضطربة من أن يصرحوا بموقفهم العدائي للإسلام والمسلمين ، وهؤلاء هم المنافقون ، لذا كانت مواجهتهم ذات طبيعة خاصة .... كما ستراه فيما يلي ... .

٤ – مواجهة المنافقين .

كانت طبيعة المجتمع في مكة قبل الهجرة ، أن القوة فيه بأيدي الكثرة الكافرة ، في مقابل قلة مؤمنة مستضعفة ، ولا ثالث لهما في المجتمع ، وبالتالي فلم يكن هناك ما يمنع الرجل من المجاهرة بالكفر ، دون أن يخشى ملامة لائم ، أو أن يرهب جانب قوة .

غير أننا نستطيع أن نلمح إشارات قرآنية ضمن حديث القرآن المكي عن الأخلاق والمعاملات ، تعتبر تأسيسا وتمهيدا لمواجهة النفاق في العهد المدني ، من ذلك الآيات التي تأمر بالصدق وتنهى عن الكذب ، وكذلك في شأن الأمانة والخيانة للعهد والأمانات ، كما في سورة القلم ، والمعارج وغيرها .

وبعد الهجرة ظهرت في المدينة قوتان متنافستان : قوة الإسلام ، وحقد أهل الكتاب ، ومن ورائهما شرذمة واهنة تريد الحياة ولو مع ذر

---

(١) الحج ٣٩-٤٠.

(٢) التوبة ٢٩.

(٣) التوبة ٣٦.

(٤) التوبة ١٣٣.

التراب تحت النعال هنا أوهناك يقول الله ﷻ : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)[١] (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) [٢] (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) [٣]

من هذه الآيات تبدو صورة المنافقين ، تلك الصورة المهزوزة المهزولة المهزومة في أحسن المواقف ، فهم عبارة عن نفوس مريضة لا تقوى على مواجهة الصدق ولا مع أنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، كلما توقعوا خطرا في مكان تركوه فرارا إلى غيره ، أو قل : كلما كانوا في جانب توقعوا فيه الخطر تركوه إلى جانب آخر ، كما في قول الله ﷻ (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون)[٤].

وسكت عنهم القرآن ولم يفضح أمرهم زمانا زاد على منتصف العهد المدني ، يخالطون المسلمين في مجالسهم ومساجدهم وطليعة خروجهم إلى الجهاد حتى أذن الله بكشفهم ، فأخبر عن بعض أماراتهم كما قال ﷻ (ولو نشاء لأرينا كهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم)[٥] (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا)[٦] (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم)[٧] ،

---

(١) البقرة ١٤.

(٢) النساء ١٤٣.

(٣) المائدة ٥٢.

(٤) المنافقون ٤.

(٥) القتال ٣٠.

(٦) النور ٦٣.

(٧) القتال ٢٠.

(وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين)(١).

ولهذا كان بعض الصحابة إذا لاحظ نفاق القوم قال : يا رسول الله ألا تأذن لنا في قتلهم ؟ فيقول ﷺ: " أتريد أن يقال إن محمدا يقتل أصحابه ؟ " والمنافقون وإن كانوا في أصل الأمر من الجبهات العدائية الخارجية ، إلا أنهم لما كانوا مختلطين بالمسلمين إلى هذا الحد الكبير ، متشكلين بأشكالهم تعذرت مواجهتهم في بداية الأمر ، بل أمهلهم الله إلى أن استقر الأمر في المدينة للإسلام ودالت الدولة له ، ويكاد يكون فرغ من المواجهات الخارجية الأخرى ، هنالك كان الوحي يتنزل على الرسول ﷺ فيعين له المنافقين بأسمائهم ، حتى سمى له ذات ليلة خمسة وثلاثين رجلا من المنافقين ، وكان بعض كبار الصحابة ﷺ يخشى حضور هذه المجالس ، ثم يأتي ويسأل من بعيد : هل سماني رسول الله ﷺ الليلة في المنافقين ؟

وهكذا نلمس من قرب حكمة الله البالغة في تنزيل القرآن وتنجيمه على ما تقتضيه الأحوال في العهدين المكي والمدني ، وهذا يتقدم نزوله ، وذاك يتأخر ، وبهذا تتضح أمامنا أهداف القرآن المكي وهي التي أبرزتها في نقاط أربع :

١) تصحيح وتحرير التصور والاعتقاد .
٢) وضع أصول العبادات .
٣) رفع قواعد صرح الفضيلة والأخلاق .
٤) تهيئة القلوب المؤمنة لأحكام أهل الذمة .

كما برزت أهداف القرآن المدني في أربع نقاط أيضا :
١) إقامة المجتمع المدني على قلب رجل واحد : (الإخاء) .
٢) نشر الشريعة وتفصيلها .
٣) مواجهة أهل الكتاب : (اليهود والنصارى) .
٤) مواجهة المنافقين .

(١) التوبة ٦٨.

وبعد ... فهذه رؤية أرجو لها إصابة الحق ، وليست نهاية أقوال القائلين، بل الله ﷻ يعطي ما يشاء من فضله لمن شاء من خلقه ، وما هذه إلا محاولة ومشاركة بقدر الطاقة البشرية ، وربنا هو المأمول أن ينفعني بها والقارئين ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، والحمد لله رب العالمين *

خاتمة

نحمد الله فى الختام على ما وفق إليه من خير ونفع فى هذا البحث ونقول بقول أصحاب الجنة عسى أن نصحبهم .

(الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله).

ونرجوا من طلبة العلم الاهتمام بكتاب الله تعالى تلاوة وحفظاً ومعرفة، وهذا القبس من علوم القرآن يعرف بالقرآن ومكان نزوله وما يتصل بذلك مما يطمئن القلب.. ويجعله على يقين أن القرآن نزل من السماء، ولم يخرج من الأرض .

كما نرجوا أن يديم الله صلتنا بالعلم مع المحبرة إلى المقبرة حتى نلقى الله لقاء يرضيه عنا.. فهو ولى ذلك والقادر عليه .

ولا يفوتك – أخى القارىء الكريم – أن تدعو لمن قدم هذا العمل بقبول عمله ، والعفو عن زلله ، وصحبة النبى محمد ﷺ فى الجنة .

والله يجمع بيننا فى الخير

إنه على كل شىء قدير

المؤلف

ثبت المصادر والمراجع

– الإتقان فى علوم القرآن :
للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ٨٤٩ – ٩١١ هـ تقديم وتعليق د/ مصطفى ديب البغا – ط أولى ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م دار ابن كثير.

– أسباب النزول :
للإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى ٤٦٨هـ ، تحقيق / كمال بسيونى زغلول ، ط أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

– البرهان فى علوم القرآن :
للإمام بدر الدين الزركشى ، ت ٧٩٤ هـ تقديم وتعليق د/مصطفى عبد القادر عطا ، ط أولى دار الفكر بيروت ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

– تفسير القرآن العظيم :
للإمام الحافظ أبى الفداء إسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير القرشى ٧٠٠ – ٧٧٤ هـ. تحقيق د/ عبد العزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا، ط الشعب.

– جامع البيان عن تأويل آى القرآن:
للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤–٣١٠هـ ، دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، ط دار المعارف. بمصر تحقيق الشيخ / أحمد شاكر وأخيه / محمد شاكر، ط الثانية.

- الجامع الصحيح
للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ١٩٤-٢٥٦هـ مع فتح البارى للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، ط دار الفكر ، بيروت .

- حلية الأولياء : للإمام أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ٤٣٠هـ ط الخامسة ، دار الريان ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .

- دراسات فى علوم القرآن :
د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومى . أستاذ الدراسات القرآنية المشارك بكلية المعلمين بالرياض. الطبعة الرابعة ، مكتبة التوبة ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م.

- سنن أبى داود.
للحافظ الإمام سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى.

- سنن الترمذى :
للإمام أبى عيسى محمد بن سورة بن موسى الترمذى ٢٠٩-٢٩٧ هـ ، تحقيق د/ أحمد محمد شاكر، ط ، دار الفكر.

- صحيح مسلم بشرح النووى :
للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ٢٠٤-٢٦١هـ، تحقيق / عبد الله أحمد أبو زينة ، ط دار الشعب.

- صحيفة على بن أبى طلحة عن ابن عباس .
تحقيق / راشد عبد المنعم الرحال ، ط أولى ، مكتبة السنة ١٤١١هـ ١٩٩١م.

- الفتح الربانى .
ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى...
للشيخ / أحمد عبد الرحمن البنا. ط دار الشهاب بالقاهرة.

- المستدرك على الصحيحين:
للإمام محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدون بن نعيم، الحاكم أبو عبد الله الحافظ ٤٠٥ هـ ، ط دار المعرفة ، بيروت

- مناهل العرفان فى علوم القرآن :
للشيخ / محمد عبد العظيم الزرقانى. ط فيصل الحلبى.